مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية
مجلد ٤٠ – عدد ٣ (٢٠٢٤): ١١٩-١٣١

Damascus University Journal of arts and humanities sciences Vol 40-No.3 (2024): 119-131

إشكالية الهوية عند علي حرب

علاء محمد الأحمد[١]، هنى محمد الجزر[٢]، منال اسماعيل المرعي[٣]

١-طالب دراسات عليا (دكتوراه)، قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق . alaa.alahmad@damascucuniversity.edu.sy

٢-أستاذة دكتورة في قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق.

٣-دكتورة مساعدة في قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق.
manalmeree@damascusuniversity.edu.sy

الملخص:

تمتاز الدراسات ما بعد الحداثية بالعدة المنهجية المتميزة في معالجة القضايا والمفاهيم الفكرية، وأسهمت هذه التحليلات في إغناء الفكر العربي بدراسات وتحليلات فتحت الأفق ووسعت الإمكانات بعد العقم الفكري الذي أصاب المشاريع الفكرية العربية، وحالة العقم الفكري في إحداث الخرق في البنية الفكرية العربية.

أسهمت اعمال علي حرب(١٩٤١-) في خلخلة بنى وأسس الخطاب العربي ونقد الخطابات الكليانية والسرديات الكبرى والمشاريع الأيديولوجية، وكانت(إشكالية الهوية)، في محور هذه الدراسات. ويطمح هذا البحث في تبيان حقيقة الهوية وتحولاتها والأعطاب التي تعيق حيويتها ومرونتها، لنخلص إلى الحديث عن الهوية المركبة باعتبارها نموذجاً لهويات ما بعد الحداثة.

تاريخ الإيداع: ٢٠٢٢/١١/٢٨
تاريخ القبول: ٢٠٢٣/٠٣/٠١

حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص
CC BY-NC-SA 04

الكلمات المفتاحية: الهوية، الهوية المركبة، إشكالية الهوية.

The problem of identity whith Ali Harb

Alaa mohamad al- ahmad[1], Hanaa mohamad al- jazr[2], Manal Ismail al-meree[3]

1- Ph.D. Students- Department Of Philosophy- Faculty Of Arts And Human Sciences- Damascus University. alaa.alahmad@damascucuniversity.edu.sy
2- - Professor - Department Of Philosophy- Faculty Of Arts And Human Sciences- Damascus University.
3- - Assistant Professor - Department Of Philosophy- Faculty Of Arts And Human Sciences- Damascus University. manalmeree@damascusuniversity.edu.sy

Abstract:

Postmodern studies are characterized by a distinguished methodology in addressing intellectual issues and concepts,and these analyzes contributed to enriching Arab thought with studies and analyzes that opened the horizon and expanded the capabilities after the intellectual sterility that afflicted Arab intellectual projects ,and the state of intellectual sterility in creating a breach in the Arab intellectual structure.

The works of Ali Harb (1941-) contributed to the disturbance of the structures and foundations of the Arab discourse and the criticism of the totalitarian discourses, the grand narratives and the ideological projects, and (the problem of identity) was at the center of these studies. This research aspires to reveal the reality of identity and its transformations and the defects that impede its vitality and flexibility, so that we can conclude to talk about the complex identity as a model for postmodern identities.

Keywords: Identity, Composite Identity, Identity Problem.

Received: 28/11/2022
Accepted: 01/03/2023

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a CC BY- NC-SA

المقدمة:

إن تتبع الخطاب الفكري العربي منذ عصر النهضة الأولى في بدايات القرن التاسع عشر حتى الآن يدرك حجم المعاناة في رسم مسارات النهوض والبناء، فمع تعدد المشاريع والأفكار الفكرية النهضوية بطروحاتها المستقاة من تجارب الآخر، أو من محاولات إعادة بناء عناصر القوة التي كانت سبباً في نهضة العرب في قرون خلت، أو محاولة التوفيق بينها، تفتت الإمكانات وتبعثرت القوى هنا وهناك في صراعات ظاهرها فكري وباطنها وجوهرها إيديولوجي، حتى وصلنا لطرق مسدودة في سبيل بناء نهضتنا المنشودة.

من هنا كان لابد لنا من محاولة قراءة عميقة وجذرية لبنية الخطاب العربي عموماً، وفي مختلف تكويناته، الدينية والسياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية .....، فالمأزق الذي تعاني منه الأمة العربية بمكوناتها المتنوعة يستدعي هذه الجرأة، بل نقول إن هذه المراجعة ضرورة وحتمية لتفكيك الخطابات وقراءة مكنوناتها وأبعادها المستقبلية، وتوليد المعاني والممكنات الكامنة فيها.

من هنا تعددت القراءات الجذرية والمشاريع الفكرية التي حاولت قراءة هذا الخطاب، وهنا نود أن نضيء على أحد المفكرين الذين أسهموا في هذا المسعى، من خلال عدة مفاهيمية وتحليلية حديثة مستمدة من دريدا وفوكو، إنه علي حرب (١٩٤١ –) المسكون بهاجس القراءة وتفكيك الخطاب على اعتبار القراءة لديه ممارسة وجودية.

ولأن أي مشروع فكري أو قراءة حضارية هي قراءة للذات في علاقتها مع نفسها ومع الآخر، آثرنا أن نبحث في خطاب علي حرب عن الهوية، على اعتبارها المحور الذي يدور حوله نتاجه الفكري. وهنا نتسائل: ما أثر الهوية أو الوعي بالهوية في تحديد مساراتنا وتوجيه خطاباتنا؟ وما أثر الآخر في صياغة هويتنا؟ وما هي العلل والأعطاب التي قد تصيب الهوية؟

-منهجية البحث:

اعتمدنا في طرحنا على تقديم آراء علي حرب فيما يتعلق بخطاب الهوية. وحاولنا أن نستخلص رؤيته في هذا المجال بقراءة تحليلية، فجاء البحث تحليلياً، تركيبياً.

-أهميّة البحث:

تكمن أهمية البحث في محاولته إبراز إحدى القراءات الفكرية على الساحة العربية اليوم، ليس من حيث صاحب الخطاب (علي حرب) فقط، بل من حيث أهمية الموضوع المطروح، (سؤال الهوية).

-إشكالية البحث:

مع إدراكنا لمحورية سؤال الهوية في تحديد واقعنا ورسم مستقبلنا، فما هي الأدوات التي نعالج بها هذا السؤال، وكيف نقرأ مفرداته؟

-أهداف البحث: يهدف البحث إلى الإجابة عن السؤال المركزي(الهوية)، من حيث ماهيتها والوعي بها، ويتفرع عن هذا التساؤل مجموعة من التساؤلات، والتي يعد الإجابة عنها تحقيقاً مرجواً لأهداف البحث:

-ما الهوية؟ وما آفاتها؟

-تحديد ماهية التحولات في خطاب الهوية من الحداثة إلى مابعدها.

-ما أثر (النقد) و(الحدث) في تجديد الهوية؟

-ما أثر الآخر في تشكيل الهوية؟

-ماذا نقصد بالهوية الملتبسة أو المركبة أو القلقة؟

أولاً– ما الهوية:

إن قراءة الواقع المعاش عبر التاريخ هي قراءة لسلسلة من التحديات والازمات والتي سعت البشرية إلى محاولة استيعابها وتجاوزها، وعلى اختلاف أنماط التحديات ثقافية أو اقتصادية او اجتماعية.... كانت الاستجابات تمثل فهم ووعي الافراد والمجتمعات لمكانتهم ودورهم وموقعهم الكوني، على اعتبار أن هذه الاستجابات هي ضرورات للوجود والبقاء. وهذه الاستجابات في مجموعها تشكل شخصية وهوية وفرادة للمجتمع أو الفرد.

لذلك يعتبر تعريف الهوية عنصراً رئيساً لكل باحث في الشأن الفكري والحضاري والاجتماعي.....، وفي محاولتنا لتحديد تعريف للهوية نلاحظ عدداً هائلاً من التعريفات، ومنها:

– " هوية الشئ ووحدته، وعينيته، وتشخصه، وخصوصيته، ووجوده المنفرد له كل واحد، وقولنا هو إشارة إلى هويته وخصوصيته، ووجوده المنفرد له الذي لا يقع فيه إشتراك"[١].

–" مركب من المعايير الذي يسمح بتعريف موضوع أو شعور داخلي ما، وينطوي الشعور بالهوية على مجموعة من المشاعر المختلفة، كالشعور بالوحدة والتكامل، والانتماء، والقيمة، والاستقلال، والشعور بالثقة المبني على اساس من إرادة الوجود"[٢].

–"حقيقة الشخص المتضمنة صفاته الجوهرية، والتي تميزه عن غيره وتجعل له ذاتاً مستقلة"[٣].

–"مجموعة الخصائص التاريخية واللغوية والنفسية التي تفصل بين جماعة وأخرى، الأمر الذي يجعلها تخرج من إطار الثبات فهي نتاج حركة متعاقبة لجملة من الشروط التي تفرض على كل مرحلة مجموعة من التحولات النوعية في المجتمعات البشرية"[٤].

–" الهوية اختراع أخلاقي خطير، طورته كل الثقافات، ولكن بخاصة تلك التي لم تعد تمتلك أي كنز خلقي، أو مخزون احتياطي لنفسها غير حراسة الانتماء بواسطة الذاكرة الممنوعة من التفكير، وليست حماية المقدسات غير العنوان العامي لها."[٥]

تعددت التعريفات مع اختلاف الخلفيات الفكرية للمفكرين، فأخذ بعضها البعد النفسي، وأضاف البعض لها بعداً مادياً، وفي حين اعتبرها البعض جوهراً، وعدها آخر كاختراع مبتدع ودليل ضعف وهشاشة، وفي المجمل تعتبر مشكلة الهوية، مشكلة فلسفية أسالت الكثير من الحبر في تتبع معانيها وأبعادها وإسقاطاتها.

ولكن كيف عرف علي حرب الهوية؟

يرفض حرب حصر الهوية ضمن تعريف ثابت وواحد، يعبر عن ماهيتها. بل يرى في ذلك تشويه للهوية وتبخيس من إمكاناتها ومعانيها، فهو يرى الهوية من خلال تفاعلها وفعاليتها الوجودية مع الآخر، فالهوية لديه " هي نسبة الذات إلى الغير، والأنا إلى الآخر"[٦]. فلا تعرف الهوية بذاتها بل بغيرها، فالآخر شرط لازم لتكون الهوية ولاستمرارها وصيرورتها، ف" لا تستقيم هوية الأنا من

[١] – الفارابي، محمد أبي النصر: التعليقات، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ص:٢١.
[٢] – ميكشيللي، أليكس: الهوية، تر: علي وطفة، دار معد، دمشق، ١٩٩٣، ص:١٥.
[٣] – خضر، لطيفة إبراهيم: دور التعليم في تعزيز الانتماء، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٧١.
[٤] – شلغين، عهد: الهوية العربية (صراع فكري وأزمة واقع)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٥، ص:٧.
[٥] – المسكيني، فتحي: الكوجيتو المجروح (أسئلة الهوية في الفلسفة المعاصرة)، ط١، منشورات ضفاف/ بيروت، منشورات الاختلاف/ الجزائر، ٢٠١٣، ص١٢.
[٦] – حرب، علي، خطاب الهوية (سيرة فكرية)، ط٢، منشورات الاختلاف/الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون/ بيروت، ٢٠٠٨، ص: ٤٣.

دون الآخر، وإن الوعي بالذات يمر بالضرورة عبر الغير، وأيقن أن الآخر حاضر في الذات بقدر ماهو غائب، وقريب بقدر ماهو بعيد، إذ الغير هو الوجه الباطن لنا، وهو ماكناه أو ما يمكن أن نكونه...."[١].

يحاول حرب أن يبين لنا أن الهوية لا تتحدد بخصائص مطلقة بل تتحدد بمقدار التحديات والمآزق والتلاقيات والاشتباك مع الآخر والواقع، وبما أن الواقع متغير والحياة صيرورة، فالهوية صيرورة متغيرة لاتحد بتعريف ثابت مطلق، والذات لاتكاد تنفصل عن الآخر شرط وجودها وأساس وجودها.

ثانياً- تحديد ماهية التحولات في خطاب الهوية من الحداثة إلى مابعدها:

إن إخفاق الحداثة في تحقيق وعودها بالعقلانية والليبرالية والمساواة ، أو على الأقل عدم قدرتها على استكمال مشروعها، فتح الباب أمام مساءلة واسعة لمفرزات الحداثة، وكانت الهوية من ضمن أبرز الاسئلة المطروحة، ففي " هذا الجو من الاخفاق الحداثي من جهة وانكشاف الهامش المابعد حداثي من جهة اخرى جاءت الهويات، وهي معنى ثقافي جديد، وهي جديد كمصطلح وجديد كمعنى"[٢]، فالهوية المابعد حداثية كسرت الأنساق الكبرى ورفضت النظريات الكليانية، وحملتها وزر الحروب والدماء والعصبيات(الفاشية والهتلرية والانظمة الكليانية [٣]و النزعة الذكورية [٤]و التقنية واستلاب الإنسان ....)، " فالأفكار المطلقة المتعالية على مجرى الأحداث، المهملة لوزن الوقائع، وأثر التجارب، قد جرت الخراب والدمار"[٥].

ويقدم لنا حرب جملة من المقارنات في التعاطي مع الخطاب حداثياً ما بعد الحداثي" لا تعامل الخطابات، في منطق ما بعد الحداثة، بوصفها منظومات لليقين أو مرايا للحقيقة، بل تعامل كتأويلات تعيد إنتاج المعنى بحرف الكلم، وصرف اللفظ"[٦]، ويضيف بذات السياق" ففي منطق الحداثة ، يملك المفهوم طابعه الكلي والضروري، من حيث صلته بما يحاول فهمه، أما في منطق ما بعد الحداثة، فإن المفهوم هو منبع للإمكانات، أي قدرته أن يتحول بتحويل بنية الواقع وخريطة العقل"[٧]، وبذلك تبدو المفاهيم أكثر مرونة وقابلية للتغير والتحول، بل أكثر قدرة على الخلق والإبداع بما يتلائم وتحولات الواقع بغية استيعابه وتجديده وفتح الأفق والاحتمالات، وبالتالي طرح الأسئلة الضامنة لمزيد من الفعالية والتجدد.

يقرأ حرب في أزمة الهوية الحداثية بنظرة إيجابية وفرصة أدت إلى خلخلة الثوابت وغيرت المعطيات ففتحت الأفق واسعاً أمام مزيد من التحليل والخلق والخصوبة، على عكس مايرى البعض في الأزمات، فهو يرى أن" المفكر ينتج في أسوء الظروف، وإذا كانت هناك أزمات ومآزق، أو انهيارات وكوارث، فمن باب أولى أن نفكر. ومن يحيا في جنة الفردوس لا يحتاج إلى التفكير... فالسياسي

---

[١] – حرب، علي: خطاب الهوية، مصدر سبق ذكره، ص: ٤٣.

[٢] – الغذامي، عبدالله: القبيلة والقبائلية – أو هويات مابعد الحداثة –، ط٢، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء، ٢٠٠٩، ص :٤٥.

[٣] – ارتبط صعود الهويات النازية والفاشية والعنصرية مع هيمنة مفهوم الدولة – القومية، وانتشار النزعة الهوياتية القومية التي تفيد بإلتقاء البعد الجيوسياسي مع الثقافي والإثني للأمم والشعوب وما سببه ذلك من إعادة رسم خرائط هوياتية سياسية جديدة على مستوى العالم، صاغها الأقوياء والمنتصرون خاصة بعد الحرب العالمية الأولى.

تأسست منذ ذلك الحين الهويات المشرعنة (legitimizing idenitiy) التي صاغتها الكيانات المهيمنة والأيديولوجيات المظفرة بفرض رؤيتها على الآخرين من جهة، وتحديد علاقات القوة والسلطة وآليات الإدماج والإقصاء والهيمنة والخضوع وتبرير ذلك كله..(ينظر: عماد، عبد الغني: سوسيولوجيا الهوية – جدليات الوعي والتفكيك وإعادة البناء– ، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، ٢٠١٧، ص٢٤١.)

[٤] – (الجنوسية)، هي استجابة ثقافية واجتماعية للتحديات الكبرى التي ظلت الأنثى تحت ضغطها بسبب الاستعلاء الفحولي والإقصاء الثقافي والمعنوي فجاءت الجنوسة ممثلة بالحركة النسوية (ينظر: الغذامي، عبدالله: القبيلة والقبائلية – أو هويات مابعد الحداثة – ، ط٢، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء، ٢٠٠٩، ص: ٦٣.)

[٥] – حرب، علي: الماهية والعلاقة (نحو منطق تحويلي)، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، ١٩٩٨، ص: ٨٤.

[٦] – حرب، علي: الاختام الاصولية والشعائر التقدمية (مصائر المشروع الثقافي العربي)، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء، ٢٠٠١، ص: ٣٢.

[٧] – المصدر السابق نفسه، ص ٣٣.

هو حلال المشكلات، فيما المفكر هو صائغ إشكالات."[1] فالأزمات فرص حقيقية لإعادة صياغة الواقع واجتراح المآلات. والأمر كذلك على مآزق الهوية كما سنرى فيما بعد.

ثالثاً- النقد والتفكيك:

يرى حرب في النقد الآلة النافعة للخلق والإبداع وكسر الأطر والانعتاق من الأنظمة الجامدة، " فالنقد المنتج هو فتح عوالم ومجالات جديدة كانت خارجة عن نطاق العقل أو المعقولية، تنفتح معها إمكانيات جديدة للتفكير والعمل، أي تتجدد المهمات الفكرية والممارسة العملية"[2] ، فالنقد شرط التجديد، شرط الاستمرار والبقاء.

ويعطي حرب للنقد مهام إبداعية وقدرات حفرية خلف الممتنع عن القول والمسكوت عنه، وما وراء الحدث، فيرى في النقد:" ليس مجرد نقض أو نفي ولا هو مجرد سلب أو هدم، وإنما هو سبر إمكانات للوجود والحياة تفتح مجالات جديدة للتفكير والعمل، بقدر ما ينتج قول ما يمتنع قوله أو فعل مالم يكن بالمستطاع فعله. ولذا فإن كلمة النقد بمعناه التفكيكي... هو ممارسة فكرية في منتهى الخصوبة والفاعلية على الصعيد المفهومي، إذ هو يتيح لنا ان نفسر ما يحتاج إلى تفسير مما هو مفاجئ أو غير متوقع، بقدر ما يتيح تفكيك آليات العجز، أو فضح منطق الهشاشة ومغادرة مواقع الهامشية"[3].

أما منهجه التفكيكي والمستقى من تفكيكية دريدا، فعلى الرغم من اعترافه بأثر دريدا عليه إلا انه يرفض ان يكون مطابقاً لدريدا أو أن يكون المنهج التفكيكي وصفة جاهزة بل يرى بأن " مصطلح التفكيك على ما أفهمه وأمارسه: لا أتعامل معه بوصفه نسخة طبق الأصل عما هو عند جاك دريدا، ولا بوصفه نموذجاً صالحاً للتطبيق، وإنما أتعامل معه كإمكان لتجديد القول وتوليد المعنى أو لإعادة الفهم وبناء الموقف"[4].وبذلك يبقى حرب وفياً لنزعته النقدية ومنطقه اللاوصائي حتى مع دعاة منهجه وعدته المناهجية.

وفيما يتعلق بالهوية فهي بالنسبة له إمكانات متجددة وولادة معاني" إن كل هوية تخفي بقدر ما تبدي، وتعطي بقدر ما تحرم"[5]، وبالتالي هي مادة دسمة للفحص والتفكيك لتأكيد فاعليتها.

رابعاً- أثر (الحدث- المعايشات الوجودية) في تكوين الهوية:

كان للحرب الاهلية في لبنان دور في صياغة فكر علي حرب على الشكل الذي نقراه، فالحدث له دور هام في تشكيل الوعي، والحدث كلما ازدادت خطورته وتهديده أو فعاليته على الذات، كان عاملاً في إعادة صياغتها، " وهذا شأن الحرب بأهوالها ووظائفها وتداعياتها: المعاناة والمكابدات تفتح أبواب المعنى وآفاق الفكر، إذ هي تحمل المرء على تغيير قناعاته وبخاصة طريقته في التفكير، وقد أسهمت الحرب في إحداث انقلاب فكري في توجهاتي ومفاهيمي، لأن كل ما كان يقال، وما يزال، هو غير ما يجري على الأرض أو يخطط له في الغرف المعتمة والعقول المظلمة"[6] ، فالظروف القاسية للإنسان تدفعه لمسائلة واقعه من جديد ومحاولة استيعاب المتغيرات الحاصلة.

وعندما نتحدث عن الحروب كحالات إنسانية شديدة التأثير نذكر معها الحب والهجرة والمنفى...." إنني حصيلة ما انخرطت فيه من التجارب وتفاعلت معه من البيئات أو ما مررت به من الاحداث ومارسته من الأعمال والأدوار... بهذا المعنى أنا ثمرة وجودي

[1] – حرب، علي: الماهية والعلاقة (نحو منطق تحويلي) مصدر سبق ذكره، ص: ٨٩.
[2] – حرب، علي: الاختام الاصولية والشعائر التقدمية (مصائر المشروع الثقافي العربي)، مصدر سبق ذكره، ص: ٣٠.
[3] – حرب، علي: الفكر والحدث (حوارات ومحاورات)، ط١، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ١٩٩٧، ص:١٩١.
[4] – حرب، علي: الاختام الاصولية والشعائر التقدمية (مصائر المشروع الثقافي العربي)، مصدر سبق ذكره، ص: ٢١.
[5] – حرب، علي: خطاب الهوية، مصدر سبق ذكره، ص :١٦٢.
[6] – المصدر السابق نفسه، ص: ١٨٦.

واشتغالي على نفسي، بقدر ما أنا حصيلة صدف وجودي ومفارقات حياتي، وأنا أثر لمسلسل المشكلات والتحديات التي أواجهها بقدر ما أنا صنيعة الألغاز التي تحركني وتقودني من حيث لا أحتسب."[١]

والتغييرات الجذرية في التفكير ومسائلة المفاهيم القائمة على الأحداث التي ذكرنا، لا يشترط أن تدفع الإنسان إلى محاكمات منطقية أو صحيحة أو عقلانية، فقد يحصل العكس فالأصولية والفاشية والعنصرية، كلها ظواهر محتملة في أي مجتمع يصل إلى مآزق وتحديات عظيمة، أو عندما تعاني الجماعات أو حتى الأفراد من مخاوف أمنية وهواجس مصيرية.[٢]

وندرك هنا أن للحدث دور محوري في تشكيل رابط بين الحقيقة والفكر، من خلال حثه للعقل على طرح الأسئلة ومحاولة الإجابة عليها بمروحة واسعة من الحلول والبدائل وبالتالي المزيد من الممكنات، " وبهذا المعنى، كل حدث يمثل قطيعة أو طفرة، أياً كان ارتباطه بما سبقه من حوادث أو حادثات" [٣]

خامساً- مفهوم الهوية عند علي حرب:

يعطي حرب للهوية الاثر الابرز في فهم إشكالاتنا وتوصيف حاضرنا بتعقيداته، وكذلك في خلق مساحات للتأمل والتفكير والتدبر والممارسة الفاعلة والعمل لتحسين الواقع وإعادة خلقه بإستمرار.

حتى في تعريفه لذاته لا يجد حرب سوى التغيير ورفض الثبات صفة لذاته" أتغير واختلف عن ذاتي وفكري باستمرار"[٤]، ومما يغري في هذا البحث تتبع سرد علي حرب لسيرته من خلال كتابه (خطاب الهوية- سيرة فكرية)، فيرفض أن يقرأ كتابه على انه سيرة ذاتية أو حياتية على اعتباره عملاً أدبياً، " هذه السيرة لا تعد عملاً أدبياً بالمعنى الحصري للكلمة، وإنما هي في المقام الاول عمل فكري .... إنها سيرة فكرية أكثر ما هي أدبية "[٥]، فكان خطاب الهوية سرد لذاته المفكرة والتي تأثرت بالترحال المكاني بعيد الحرب الأهلية، وما رافق ذلك من قلق وتوتر، ورافق هذا القلق تداعي الكثير من اليقينيات والمبادئ والقيم، وبدء بإعادة النظر بمفاهيمه ورؤيته للحياة وموقعه الكوني، وكانت البداية في علاقته بذاته وفكره، أي هويته، حيث اطلق العنان لذاته المفكرة لتبحث عن نفسها، وكان التالي:

" لا مهرب من وضع هويتنا على طاولة الفحص والتشريح لفحص ما تجرنا إليه من الأفخاخ والمآزق والكمائن، ولذا فإن التفكيك هو الإمكان المفتوح، إذا شئنا فهم الأزمة التي هي بوجهها الابرز حصيلة إدارتنا السيئة لهوياتنا وسياستنا الفاشلة لذواتنا، وأنا عندما أفكك هويتي أجد أني كائن هجين " [٦] .

لنقف عند هذا النص الهام ولنحاول فهم بعض النقاط الرئيسة فيما يتعلق بالهوية:

١-كما أن الهوية مصدر للفخر والاعتزاز لدى كثيرين، لكنها أيضاً قد تكون مصدراً للمشكلات والأفخاخ على حد تعبير حرب بسبب الاستخدام السئ والفهم الخاطئ لحقيقة الهوية والذات سبب لأزمتنا الحالية وأزماتنا عموماً.

٢- الانسان كائن هجين.

إن تحليل ومتابعة هاتين النقطتين توضح لنا مفهوم الهوية عند علي حرب:

---

[١] – حرب، علي: خطاب الهوية، مصدر سبق ذكره، ص: ١٧٩.
[٢] – حرب، علي: الماهية والعلاقة (نحو منطق تحويلي) مصدر سبق ذكره، ص :٨٤ . بتصرف.
[٣] – حرب، علي: أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر (مقاربات نقدية وسجالية)، ط١، دار الطليعة، بيروت،١٩٩٤ ، ص: ٥٤.
[٤] – حرب، علي: خطاب الهوية، مصدر سبق ذكره، ص :١١.
[٥] – المصدر السابق نفسه، ص :١٠.
[٦] – حرب، علي: خطاب الهوية، مصدر سبق ذكره، ص: ٢٠٢.

سادساً- أفخاخ الهوية:

إن تحديد الهوية بشكل دقيق يكمن في عدم تحديدها أصلاً[١]، فالهوية مركبة متعددة ملتبسة، قلقة. مرنة، متغيرة، فاعلة ومنفعلة، هي كل ذلك، فلا يحدها اسم ولا عنوان ، ولا شعار ولا بعد أحادي، ها هو علي حرب يحاول قراءة هويته " وأنا عندما أخلو إلى نفسي أجدني موزعاً بين انتماءاتي، منشطراً على نفسي بين أهوائي وميولي، متوتراً بين مواقعي وخياراتي، ... وذلك من جراء تعدد الأنوات وكثرة الهويات الناشئة من تعدد أطوار الوعي وطبقات الذاكرة ومحطات الحياة، بحيث يبدو من الصعب علي أن أتوقف عند محطة دون سواها ، باعتبارها المرتكز أو الجوهر أو النواة."[٢] ، ومن هنا تبدو أن المشكلة أو الفخ الأول في مفهوم الهوية هو محاولة تحديدها وتقييدها، فهويتنا هي حياتنا بكل تفاصيلها و " الواقع أغنى من ان تختزله مقولة أو كلمة، والحياة أغنى من أن يختصرها نهج أو نموذج أو وعظ ، والهوية أرحب من أن تحتويها فكرة أو عقيدة أو مؤسسة."[٣]

الاختزال آفة تصيب الهوية، فتنقلها من رحابة الحياة وزخم معانيها إلى ضيق العقائد والايديولوجيات، ولا أخطر علينا من هويات ضيقة مغلقة جامدة، مازلنا نذوق بفعلها الأمرين، من طائفية مقيتة إلى عرقية بغيضة وعشائرية عفا عليها الزمن.....، وما أكثر آفات الاختزال للهوية.

ويرتبط بآفة الاختزال مايسميهم علي حرب ،بحراس الهوية وشرطة المعرفة..، أصحاب المنطق الوصائي، هؤلاء الحراس ليسوا من التراثيين أو حراس العقيدة فقط، بل من الحداثيين أيضاً، " إن الحداثيين لم يكونوا كما ادعوا... نعم قدموا أنفسهم بوصفهم دعاة نهوض وتقدم، واتهموا غيرهم بالرجعية والتخلف، فيما هم أنفسهم كانوا رجعيين ، إذ تمسكوا بحداثة مستهلكة عمرها أربعة قرون، ولم يحسنوا المشاركة في صناعتها على سبيل الخلق والتجديد في عناوينها... ادعوا بأنهم أصحاب عقل نقدي وفكر تاريخي... لكنهم تعاملوا مع شعاراتهم بمنطق لاهوتي، ... وهذا من أسباب ضعفهم وهشاشتهم."[٤]

وبطبيعة الحال توجهت سهام النقد نحو حماة التراث وحراس العقيدة والهوية الدينية والتراثية، والذين ثبتوا المتغير، وأطلقوا النسبي، أي الهوية، فابتلي الفكر بداء الاصطفاء" وتلك حصيلة محاولات تحويل الدين إلى نظام شمولي يهيمن على مختلف مناحي الحياة المعاصرة بفقه العصور السابقة، وهذا هو مآل احتكار المشروعية لممارسة الوصاية على الأمة والهوية، بفكر أحادي مغلق، أو بمنطق دغمائي ثبوتي، أو بعقلية اصطفائية نرجسية.."[٥].

وبذلك يدرج أصحاب المشاريع الفكرية على اختلاف نماذجهم الفكرية في " سبب الأزمة الوجودية، وأصل الخراب في حروب الأسماء، والرموز والأفكار والهويات، حول ما هو قدسي وإلهي، ومتعال وعظيم، أو حول ما يتصل بالحقيقة، والعقيدة والعدالة

---

[١] – في إجابته عن سؤال: هل يمكن تحديد الهوية؟، يجيب حسن حنفي: الهوية تأتي من المرحلة التاريخية لا من الانتساب الفكري أو الولاء الإيديولوجي... فالهوية ليست ثابتة بل متغيرة على الأمد الطويل.. هوية مفتوحة لا منغلقة تقوم على التحدي والمنافسة لا على التعصب والكراهية .... إنسانية تتجاوز الحدود الجغرافية والعرقية واللغوية والثقافية .... لا تميز فيها بين أجناس أو لغات أو ثقافات أو أوطان..(حنفي، حسن : الهوية، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ، ٢٠١٢، ص٧٢-٧٣-٧٤. بتصرف)

[٢] – حرب، علي: الاختام الاصولية والشعائر التقدمية (مصائر المشروع الثقافي العربي)، مصدر سبق ذكره، ص: ٤٧.

[٣] – حرب، علي: الماهية والعلاقة (نحو منطق تحويلي) مصدر سبق ذكره، ص: ٨٥.

[٤] – حرب، علي: تواطؤ الاضداد (الآلهة الجدد وخراب العالم)، ط١، منشورات الاختلاف /الجزائر، الدار العربية لعلوم ناشرون / بيروت، ٢٠٠٨، ص: ١٢٤.

[٥] – المصدر السابق نفسه، ص: ١٢٥.

والحرية والتقدم"[١]. وبالتالي نقد كل النظريات والانساق الفكرية الكليانية " النظرية والبناء والنسق، كل ذلك يصنع هوية مغلقة أحادية بمنطق الحصر والاستبعاد والتهميش".[٢]

ومن الآفات التي ابتلي بها الفكر هي تجنيس المعرفة أو العلوم والعقول، فيرفض حرب أن تجنس العقول لعربية وشرقية وغربية، أو تصـــنف المعارف لجماعة هنا أو جماعة هناك، فالفكرة الخلاقة تخترق الثقافات وتمتزج بها على نحو فاعل وهو ماتثبته التجارب والاختراعات المفيدة للبشرية " إننا مصابون بداء معرفي يقوض مشاريعنا المعرفية هو داء التجنيس للعلوم والعقول..... فيما ينبغي أن نفكر معرفياً أياً كانت خصـــوصـــية المعطى الذي نشـــتغل، بحيث ننتج حقول نظرية أو تراكيب مفهومية أو أدوات منهجية لا جنسية لها. هذا إذا لم نشأ لوساوس الهوية وهواجس الخصوصية أن تبتلع إرادة الفهم ومشاريع المعرفة "[٣].ويضيف " إن الفكرة الخصـــبة والخلاقة لا تخص جماعة قومية دون أخرى.... لذا فهي تخرق حواجز الثقافة وعصـــور المعرفة بما تقدمه من إمكانات للفهم والتقدير، أو للعمل والتدبير. "[٤]

هذه نماذج لمآزق الهوية أو أفخاخها والتي يقع فيها المثقفين على مختلف مشـــاربهم وغاياتهم، وكان الأفضـــل والأجدى هو مواجهة مشكلة الهوية على نحو فعال وخلاق، وبالتالي المساهمة في النشاط الفكري العالمي، وتخطي العقبات الداخلية بمرونة ورشاقة فكرية. هذا ما يمكن أن نسميه الخطأ في إدارة الهوية والاستخدام السئ لحقيقتها، وهو أول العناصر التي تبين مفهوم الهوية لدى حرب كما ذكرنا.

سابعاً- الانسان كائن هجين:

يريد علي حرب من هذا التعبير توضيح الطبيعة المتحولة والمتغيرة للهوية، والتي تساهم في تكوينها عناصر لا حصر من تجارب وتحديات ومشارب مختلفة، ويتشارك العديد من المفكرين وتحديداً مابعد الحداثيين في توصيفم للهوية، فهي هوية مركبة، ملتبسة، قلقة ،....، ولن نكتفي بما يورده حرب في هذا المضمار ،بل سنورد مجموعة من التوصيفات لهذه الهوية المركبة لمفكرين آمنوا بفكرة التعدد والانفتاح للهوية على فضاءات الاحتمال والممكن[٥]، يقول حرب:" أنا وإن كنت عربياً مسلماً، فإني مسيحي لاعتقادي بأن الحق يتجلى في الخلق، ويهودي لأني أؤمن باصـــطفائي و أمارس نخبويتي، وإغريقي لأني أمارس الفلسفة ، وفرنســـي لأني تثقفت بثقافة الفرنســـيين، وبوذي لأني أتوق إلى الفناء فيما أحب، وقبل كل ذلك كله زنديق لأن هذه الحياة تســـتغرقني بقضـــها وقضيضها... فأنا أتردد بين هويات مختلفة وأتوارى خلف أقنعة لا حصر لها."[٦]

وفي سيرته الفكرية (خطاب الهوية) يورد ما يطابق المعنى:" فأنا قارئ القرآن وربيب حضارة الحجاب والعصر الزراعي، بقدر ما أقرأ نيتشه وأعايش حضارة الباليه والعصر الالكتروني، وأنا سليل أسرتي وصنيع طائفتي أو مهنتي، بقدر ما أنا ثمرة ما اتصلت به وتفاعلت معه من الأوساط الاجتماعية والعوالم الثقافية، وكل ما مر بي وحدث لي، أكان عظيم الشأن أم صغيره، يترك أثره ويحدث مفاعيله في تكويني الفكري، ولأنني كذلك، فأنا تشكيلة لا نظير لها، مما يجعلني أمارس أحديتي من حيث تركيبتي، بقدر ما أجتمع

---

[١] – حرب، علي: تواطؤ الاضداد (الآلهة الجدد وخراب العالم)، مصدر سبق ذكره، ص:٢٣. بتصرف.

[٢] – حرب، علي: الممنوع والممتنع (نقد الذات المفكرة)، ط ، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء،١٩٩٥ ،ص: ١٠.

[٣] – حرب، علي: هكذا أقرأ مابعد التفكيك، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٥، ص:٤١.

[٤] – المصدر السابق نفسه، ص: ١٣٦.

[٥] – يناقش داريوش شـــايغان مفهوم الهوية بمنطق منفتح وقراءة متعددة لها، فالهوية بالمنطق الأحادي المنغلق هي هوية وهمية لا وجود لها، بل الهوية هي فضـــاء من الاحتمالات والإمكانات، فيســـميها – هوية بأربعين وجهاً- حيث غصـــت كتاباته بمفاهيم مبتكرة تلائم ما يذهب إليه من انفتاح في الفكر والهوية ،مثل: الوهم المزدوج، طوبوغرافيا الوجود المتعدد، تهجين المفاهيم، هوية مركبة، تزامن الثقافات المتنوعة..(للاستزادة: شايغان، داريوش: هوية بأربعين وجهاً، تر: حيدر نجف، مراجعة وتقديم: عبد الجبار الرفاعي، ط١، مركز دراســـات فلســـفة الدين/ بغداد، دار التنوير للطباعة والنشـــر/ بيروت / القاهرة/ تونس/، ٢٠١٦.)

[٦] – حرب، علي: الممنوع والممتنع،(نقد الذات المفكرة)، ط١ ،المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء،١٩٩٥ ، ص: ١٠٨.

مع غيري وأتقاطع معه في مكون من مكونات هويتي، كالاسم أو المعتقد أو النمط أو الوطن."[١]وما يشفع لنا إطالة الاقتباس هنا هو الرشاقة المنعشة في التعبير عن الذات وعوامل تكونها.

ويقول المفكر الهندي والحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد أمارتيا صن" بإمكاني أن أكون، في وقت واحد، آسيوياً، ومواطناً هندياً، وبنغالياً من أصل بنغلاديشي، وأحد سكان أمريكا أو بريطانيا، وباحثاً اقتصادياً، ومشتغلاً بالفلسفة، ومؤلفاً، ومتحدثاً بالسنسكريتية، ومعتقداً في العلمانية والديمقراطية، ورجلاً، ومن أنصار الحركة النسوية..."[٢].

هذه الهوية المرنة الديناميكية، هي مانبنيها بجهدنا، ونغذيها بممارستنا الفكرية، فليست إرثاً نركن إليه، ولا وصفات جاهزة، فهي " ليست كياناً ما ورائياً .... هي ثمرة الجهد والمراس.... إنها بنية يعاد بناؤها باستمرار"[٣]، ولا تعبير أدق و أبلغ ما وصف محمود درويش الهوية في قصيدته (طباق) إلى إدوارد سعيد:

" الهوية؟ قلت

فقال: دفاع عن الذات

إن الهوية بنت الولادة، لكنها

في النهاية إبداع صاحبها، لا

وراثة ماض، أنا المتعدد ... في

داخلي خارجي المتجدد

.....

فإن الهوية مفتوحة التعدد

لا صدفا

أو خنادق "[٤]

هي بنت الولادة لا ماض لها، إبداع صاحبها وثمرة جهده وتجاربه، أو كما يرى أدونيس "إنها ليست معطى جاهزاً ونهائياً، وإنما عمل يجب إكماله دائماً"[٥]، فهي مشروع لم ولن يكتمل ما دامت الحياة بسيرورتها تغدق علينا بالتحولات.

يكمن الخروج من المأزق الهووي بتنظيم العلاقة مع ذواتنا، لنحافظ على حيويتنا الفكرية واستمرارنا كعناصر فاعلة في الحقل الفكري، " فالخروج من المأزق يكون بإقامة علاقة نقدية مع الذات والأفكار، لإحداث قفزة ننتقل بها من لغة الشعار وعقلية الطوبى ومنطق الاستلاب، إلى لغة الفهم وعقلية الخلق ومنطق الحدث والتكوين"[٦] ولنضمن لهوياتنا القوة والفعالية والحضور يجب أن نتخلى عن معاملتها" بمنطق الحراسة والمدافعة،..... فحراسة الأفكار هي مقتلها، وانغلاق الهويات علامة على ضعفها."[٧]

---

[١] – حرب، علي: خطاب الهوية، مصدر سبق ذكره، ص: ٢٠٣.

[٢] – صن، أمارتيا: الهوية والعنف(وهم المصير الحتمي)، تر: سحر توفيق، سلسلة عالم المعرفة، العدد:٣٥٢، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠٨، ص:٣٤.

[٣] – حرب، علي: حديث النهايات (فتوحات العولمة ومآزق الهوية)، ط٢، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ٢٠٠٤، ص: ٢٣.

[٤] – درويش، محمود: كزهر اللوز أو أبعد، ط١، دار رياض الريس، بيروت، ٢٠٠٥.

[٥] – أدونيس، موسيقى الحوت الأزرق(الهوية، الكتابة، العنف)، ط١، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٢،ص:٨. بتصرف.

[٦] – حرب، علي: حديث النهايات (فتوحات العولمة ومآزق الهوية)، مصدر سبق ذكره، ص:٢٣.

[٧] – المصدر السابق نفسه، ص: ٢٤.

نخلص مما سبق إن تبني الهوية المركبة المسكونة بهاجس النقد، القلقة من كل تغيير كبر أم صغر، هي جوهر للتغيير الفعلي في مجتمعاتنا وذواتنا، وبها نواكب تسارع التغيير في الكوكب، ونتخلص من آفات الطائفية والعرقية وكل تصنيف ضيق ثابت.

ثامناً– النتائج:

– إن فشل المشاريع العربية النهضوية على اختلاف أسسها وتصوراتها، وطوال الفترة الماضية، يفرض علينا إعادة قراءة الاسس التي نبني عليها أفكارنا.

– كانت الهوية في مركز الصراع الفكري والذي تحول إلى صراع مركب على كافة المستويات والصعد، ليصل إلى الدموي، فكان لابد من إعادة تبيان حقيقتها.

– حول البعض هوياتهم إلى أصنام وانتماءاتهم إلى عقائد ومتاريس ونصبوا أنفسهم حراس عليها، وهذا دليل إفلاس فاعليتهم الفكرية ونضوب المعاني المبتدعة منها.

– الآخر ليس جحيماً للأنا، بل هو جزء من تكوينها، وشرط بقاءها واستمرارها.

– تعامل علي حرب مع قضاياه ومنها – الهوية– باحتراف المفكر، فأخضعها للتحليل والتفكيك والنقد بغية إعادة خلقها وضمان استمراريتها.

– الهوية نتيجة جهد وعمل ونسعى لنقدها وصقلها، وليست إرثاً نحافظ عليه ونحنطه.

– الفكر نشاط إنساني لا يعترف بالحدود ولا التجنيس، ولا يتأطر بقيود.

– الهوية متعددة ومركبة، لا تقبل الاختزال أو الاحتواء، وبهذا المعنى للهوية خلاص للعقل من قيود أربك نفسه بها، وكان لها أثر كارثي على أرض الواقع.

التمويل:

هذا البحث ممول من جامعة دمشق وفق رقم التمويل (٥٠١١٠٠٠٢٠٥٩٥).

المصادر:

١. حرب، علي: تواطؤ الاضداد (الآلهة الجدد وخراب العالم)، ط١، منشورات الاختلاف /الجزائر، الدار العربية لعلوم ناشرون / بيروت، ٢٠٠٨.
٢. حرب، علي: الاختام الاصولية والشعائر التقدمية (مصائر المشروع الثقافي العربي)، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء، ٢٠٠١.
٣. حرب، علي: الممنوع والممتنع،(نقد الذات المفكرة)، ط١ ،المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء،١٩٩٥ .
٤. حرب، علي: أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر (مقاربات نقدية وسجالية)، ط١، دار الطليعة، بيروت،١٩٩٤.
٥. حرب، علي: الفكر والحدث (حوارات ومحاورات)، ط١، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ١٩٩٧.
٦. حرب، علي: حديث النهايات (فتوحات العولمة ومآزق الهوية)، ط٢، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ٢٠٠٤.
٧. حرب، علي، خطاب الهوية (سيرة فكرية)، ط٢، منشورات الاختلاف/الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون/ بيروت، ٢٠٠٨.
٨. حرب، علي: الماهية والعلاقة (نحو منطق تحويلي)، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، ١٩٩٨.
٩. حرب، علي: هكذا أقرأ ما بعد التفكيك، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٥.

المراجع:

١. أدونيس، موسيقى الحوت الأزرق (الهوية، الكتابة، العنف)، ط١، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٢.
٢. حنفي، حسن: الهوية، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠١٢.
٣. خضر، لطيفة إبراهيم: دور التعليم في تعزيز الانتماء، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٠.
٤. درويش، محمود: كزهر اللوز أو أبعد، ط١، دار رياض الريس، بيروت، ٢٠٠٥.
٥. شايغان، داريوش: هوية بأربعين وجهاً، تر: حيدر نجف، مراجعة وتقديم: عبد الجبار الرفاعي، ط١، مركز دراسات فلسفة الدين/ بغداد، دار التنوير للطباعة والنشر/ بيروت / القاهرة/ تونس/، ٢٠١٦.
٦. شلغين، عهد: الهوية العربية (صراع فكري وأزمة واقع)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٥.
٧. صن، أمارتيا: الهوية والعنف (وهم المصير الحتمي)، تر: سحر توفيق، سلسلة عالم المعرفة، العدد:٣٥٢، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠٨.
٨. عماد، عبد الغني: سوسيولوجيا الهوية –جدليات الوعي والتفكيك وإعادة البناء، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١٧.
٩. الغذامي، عبدالله: القبيلة والقبائلية – أو هويات مابعد الحداثة –، ط٢، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء، ٢٠٠٩.
١٠. الفارابي، محمد أبي النصر: التعليقات، مجلس دائرة المعارف العثمانية.
١١. المسكيني، فتحي: الكوجيتو المجروح (أسئلة الهوية في الفلسفة المعاصرة)، ط١، منشورات ضفاف/ بيروت، منشورات الاختلاف/ الجزائر، ٢٠١٣.
١٢. ميكشيللي، أليكس: الهوية، تر: علي وطفة، دار معد، دمشق، ١٩٩٣.